



كان الوضع في الدولة الفارسية قبل الإسلام يمثل مأساة حضارية بكل المقاييس في كل الجوانب الأخلاقية، والاجتماعية، والدينية، والسياسية، والعسكرية على السواء.

المجتمع الفارسي:

فقد كان الشعب في المجتمع الفارسي يخضع لنظام شديد الطبقية، وفيه مهانة كبيرة للإنسانية، فكان المجتمع مقسماً إلى سبع طبقات أدناها عامة الشعب، وهم غالب سكان فارس، ومنهم العمال وال فلاحون والجنود والعبيد، وهؤلاء ليس لهم حقوق بالمرة.

وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر، ولا تصل بينها صلة [1]، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً من أمير أو كبير، وكان من قواعد السياسة الساسانية [2] أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه، ولا يستشرف لما فوقه، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها - في زعمهم، وكان ملوك إيران - أو فارس - لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع [3].

وكان في هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتهان للإنسانية يظهر جلياً في مجالس الأمراء والأشراف؛ حيث يقوم الناس على رءوس الأمراء كأنهم جماد لا حراك بهم، وقد أكابر ذلك وأنكره المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، رسول المسلمين إلى الفرس أثناء فتوح فارس، ويتبيّن مما روى الطبراني ما وصل إليه الفرس من الاستكناة والخضوع لسادتهم جرياً على عاداتهم.

قال: عن أبي عثمان النهدي قال: "لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس أجلسوه واستأذنوا رستم في إجازته، ولم يغروا شيئاً من شارتهم تقوية لتهاونهم، فأقبل المغيرة بن شعبة وال القوم في زيهم، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب، وبسطهم على غلوة [4]، ولا يصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليها غلوة، وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي حتى جلس معه على سريره ووسادته، فوثبوا عليه فترثروه وأنزلوه وَمَغْنُونه [5]، فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم، إنما عشر العرب سواء، لا يستبعد بعضاً؛ إلا أن يكون محارباً لصاحب، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسي، وكان أحسن من الذي صنعت أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم ولكن دعوتموني. اليوم علمت أن أمركم مضمحل [6]، وأنكم مغلوبون، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة، ولا على هذه

الجانب الديني في الدولة الفارسية:

وعلى الرغم من التقدُّم الحضاري والعسكري الذي وصلت إليه الدولة الساسانية - وهو الأمر الذي أحدث توازنًا إقليميًّا مع الإمبراطورية الرومانية. فإن الوضع من الناحية الدينية كان متعسِّفًا لأقصى درجة.

لقد اتخذت الدولة الساسانية منذ بداياتها الزرادشتية [8] دينًا رسميًّا لها، وهذا الدين قائم على عبادة النار، وتقسيم العالم إلى عالم للظلمة وآخر للنور، وقال: إن نور الله يسطع في كل ما يشرق ويلتهب في الكون، وأمر بالاتجاه إلى جهة الشمس والنار ساعة الصلاة؛ لأن النور - في زعمه - رمز للإله، وأمر بعدم تدنيس العناصر الأربع؛ وهي: النار والهواء والتراب والماء، ثم جاء من بعده علماء سُنُّوا للزرادشتين شرائع مختلفة، فحرّموا عليهم الاتساع بالأشياء التي تستلزم النار، فاقتصرت في أعمالهم على الفلاحة والتجارة، ومن هذا التمجيد للنار واتخاذها قبلة في العبادات تدرج الناس إلى عبادتها، حتى صاروا يعبدونها عيناً، ويبنون لها هياكل ومعابد، وانقرضت كل عقيدة وديانة غير عبادة النار، وجُهلت الحقيقة، ونسى التاريخ [9].

ولما كانت النار لا توحى إلى عبادها بشرعية ولا ترسل رسولاً، ولا تتدخل في شؤون حياتهم، ولا تعاقب العصاة وال مجرمين، أصبحت الديانة عند المجوس عبارة عن طقوس وتقالييد يؤدونها في أمكنة خاصة، وفي ساعات معينة، أما في خارج المعابد، وفي دورهم ودوائر حكمهم وتصرُّفهم، وفي السياسة والمجتمع، فكانوا يسيرون على هواهم، وما تملّى عليهم نفوسهم، أو ما يؤدي إليه تفكيرهم، أو ما توحى به مصالحهم ومنافعهم، شأن المشركين في كل عصر ومصر [10].

وعندما صار الأمر هكذا يُباح فيه كل شيء لأي أحد؛ أصبح أساس الأخلاق متزعزعًا مضطربًا، فصارت المحرماتُ النسبية - التي تواضعت على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة - موضع خلافٍ ونقاش، ويدرك ول ديورانت في قصة الحضارة أن الأخ كان يتزوج أخته، والأب ابنته، والأم ولدها [11]، حتى إن يزدجرد الثاني الذي حكم في أواخر القرن الخامس الميلادي تزوج ابنته ثم قتلها [12]، وإن بهرام جوبين الذي تملّك في القرن السادس كان متزوجًا بأخته [13]. ولم يكن هذا الزواج يُعدُّ معصية عند الإيرانيين، بل كان عملاً صالحًا يتقرّبون به إلى الله، ولعلَّ الرحالة الصيني (هوئن سوئنج [14]) أشار إلى هذا الزواج بقوله: "إن الإيرانيين يتزوجون من غير استثناء" [15].

ثم ظهر ماني [16] في القرن الثالث الميلادي، فدعا إلى حياة العزوبة لجسم مادة الفساد والشرِّ من العالم، فحرّم النكاح استعجالًا للقناة، وانتصارًا للنور على الظلمة - كما يدّعى - بقطع النسل، ثم قتله بهرام [17] سنة 276 م قائلًا له: أنت الذي تقول بتحرير النكاح ليستعجل فناء العالم ورجوع كل شكل إلى شكله وأن ذلك حق واجب.. فمن الحق الواجب أن يعدل لك هذا الخلاص الذي تدعوه إليه وتعان على إبطال هذا الامتزاج المذموم [18]. ولكن تعاليمه لم تمت بموته، بل عاشت إلى ما بعد الفتح الإسلامي [19].

ثم حدث انقلاب أخلاقي جديد أشدُّ فسادًا من انحرافات ماني؛ حيث ظهر مزدك [20] الذي ولد 487 م، فأعلن أن الناس يُلدوا سواء لا فرق بينهم؛ فينبغي أن يعيشوا سواء لا فرق بينهم، ولما كان المال والنساء مما حرست النفوس على حفظه وحراسته كان ذلك عند مزدك أهم ما يجب فيه المساواة والاشتراك. قال عبد القاهر البغدادي [21]: "المزدكية الذين استباحوا المحرمات وزعموا أن الناس شركاء في الأموال والنساء، ودامت فتنة هؤلاء إلى أن قتلهم أنوشروان في زمانه" [22].

وقال الطبرى: "افتصرن السفلة ذلك واغتنموا، وکاتفوا مزدك وأصحابه وشاعوهم، فابتلي الناس بهم وقوى أمرهم، حتى كانوا

يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم، وحملوا قباد [23] على تزيين ذلك توعدوه بخلعه -أي إن لم يفعل- فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده، ولا المولود أباه، ولا يملك شيئاً مما يتسع به" [24].

هذا الوضع دفع كسرى قباد إلى أن يناصر هذه الدعوة الفاسدة، بل ينشط في نشرها وتأييدها، حتى انغمست إيران بتأثيرها في الفوضى الخلقية وطغيان الشهوات.

الجانب العسكري في الدولة الفارسية:

أما على الجانب العسكري؛ فقد كانت قوة الفرس جنوداً قائمة على الخيالة والرماة، وكانت طريقتهم في القتال أن يمطروا العدو سهاماً، ثم يجتربوه بجملة من الفرسان في التوقيت الملائم [25]، وكان لدى الساسانيين فرقة من عشرة آلاف من الفرسان المختارين (فرقة الخالدين)، وفرقة أخرى من الفدائين تمتاز بالجرأة وتحدي الموت، كما كان الفرس يستخدمون الأفيال في القتال، وكانت الفيلة تتخذ مكانها خلف الفرسان، وكانت أصواتها ورائحتها ومناظرها غير المألوفة لأعدائهم تلقي الرعب فيهم وفي خيلهم [26].

وقد بلغ جيش الفرس بقيادة رستم الذي واجه المسلمين في القادسية مائتي ألف مقاتل [27]؛ فقد كانت لديهم أعداد كثيرة يُلْقُونها في الحروب بلا حساب.

وشهدت الإمبراطورية الفارسية تفرقة في المعاملة لرعاياها تبعاً لدينهم، وكان أول اضطهاد حقيقي وقع على نصارى إيران قد بدأ منذ عام 339 م حتى وفاة سابور الثاني [28] عام 379 م، وكان ذلك الاضطهاد في ولايات الشمال الشرقي، وفي المناطق المتاخمة للإمبراطورية الرومانية، وقدر بعض المؤرخين ضحايا اضطهاد سابور بستة عشر ألفاً، وهو الذين عُرفت أسماؤهم، وكذلك لم يكن أردشير الثاني [29] خليفة سابور محبّاً للنصارى؛ لذلك امتدَّ اضطهاد الساسانيين لنصارى إيران مدة قرنين متتالين [30].

وعلى الرغم من الهدوء النسبي بين نصارى إيران وبين خلفاء أردشير الثاني، فإن الأمور قد عادت إلى سابق عهدها في أواخر عهد يزدجرد الأول [31] (ت 420 م) الذي عين (مهر نرسى) - عدو النصارى الأول في إيران - رئيساً للوزراء، وما كاد بهرام الخامس [32] يعتلي العرش حتى بدأ في اضطهادٍ ممنهجٍ ومنظمٍ لنصارى إيران؛ مما أدى إلى فرار النصارى المجاوريين للعرب إلى الأراضي البيزنطية، وقد أثار (مهر نرسى) القبائل العربية الموالية للفرس ضد النصارى، فُقتل عدد لا يُحصى منهم.

بل نال اضطهاد الفارسيُّ بعضَ النبلاء الذين دانوا بالنصرانية، وأفراداً من الأسرة المالكة مثل (بير جشنسب) ابن أخي سابور الثاني، والذي دخل النصرانية وسمى نفسه بالاسم السرياني (مارسابا) [33].

العلاقة بين الدولتين الرومانية والفارسية:

كانت الدولتان الفارسية والرومانية في هذه الفترة فرسي رهان يتتسابقان على زعامة العالم، وفي إطار هذا التنافس حدثت سلسلة من الحروب الدامية بينهما، وقد راح ضحية هذه الحروب الآلاف من أبناء الدولتين من دون جريرة؛ فقد كان الجنود عبيداً ليس أمامهم إلا الانصياع لأوامر ورغبات الحاكم الجامحة الطامحة، ولم تكن هناك أي رسالة للحاكم أو الجيش اللهم توسيع مساحة الأرض المملوكة!

ولعلَّ من أشهر الحروب والمعارك التي خاضتها الدولتان في هذه الفترة المعارك التالية:

ـ معركة دارا

التي وقعت في عام 530م، التي كانت قبل مولد الرسول صلی الله عليه وسلم بأربعين عاماً تقريباً، وفيها تقابلت الجيوش الفارسية والجيوش البيزنطية في شمال سوريا، وبعد قتال مثير استطاع البيزنطيون هزيمة الفرس، وكسب هذه الجولة من الجولات الحربية الدامية التي كانت مشتعلة بين الدولتين[34].

ـ معركة مالاطيا

التي وقعت في عام 574م بعد مولد الرسول صلی الله عليه وسلم بثلاثة أعوام، وتعتبر هذه المعركة من أكبر معارك القرن السادس الميلادي، وفيها اصطدمت جيوش الفرس بقيادة أنوشروان مع الجموع الكبيرة التي حشدتها البيزنطيون ليدافعوا عن بيزنطة، وفي هذه المعركة -أيضاً- انهزم الفرس، وفر أنوشروان من المعركة[35].

ـ معركة أركسامون

التي وقعت في عام 605م في منطقة تقع بين أورفه والنزيب شمال سوريا، والتي التقت فيها جيوش الفرس بقيادة كسرى الثاني بارويز بالجيش البيزنطي، فقد استطاع الفرس أن يُلْحِقُوا بالروم هزيمة كبيرة، ولكنها لم تكن حاسمة[36]. فهذه أمثلة لبعض الحروب التي وقعت بين الفرس والروم بحثاً عن الزعامة والاستئثار بثروات العالم.

والملاحظ في كل هذه الحروب أنه لم يكن هناك اهتمام بالمرأة براحة أو أمان الجنود؛ بل اعتاد الفرس أن يربطوا جنودهم في المعارك بالسلسل، ليمعنوهم من الفرار! وقد شاهد المسلمون ذلك بأعينهم في أكثر من موقعة مع الفرس، لعل من أشهرها موقعة الأبلة [37]، التي كان المسلمون فيها تحت قيادة البطل الإسلامي الفَدِ خالد بن الوليد رضي الله عنه، وفيها انتصر المسلمون، وعُرِفَت الموقعة باسم "ذات السلاسل" [38]؛ لأن الفرس كانوا يربطون كل عشرة من الجنود في سلسلة؛ لكي لا يفروا[39]! وفعل الروم ذلك أيضاً[40].

[1] أثر كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين ص590.

[2] الإمبراطورية الساسانية: هي إمبراطورية فارسية أسسها أردشير بن بايك بن ساسان، وإلى جده ساسان تُسبَّب، وقد حكم أردشير في الفترة 226 – 241م، وفي عهده أصبحت الديانة الزرادشتية هي دين الإمبراطورية الساسانية الرسمي.

[3] أثر كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين ص418-422 بتصريف.

[4] الغُلُوُّ: مجازة الحَدِّ، والغُلُوُّ: قدرٌ رَمِيَّ بِسَهْمٍ وقد تستعمل الغُلُوُّ في سباق الخيل والغُلُوُّ الغاية مقدار رَمِيٍّ، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (غلو) 15/131، والمعنى أنهما يذبحه بذبحه بفرشون بسطهم الثمينة لمسافة طويلة.

[5] التَّرْتَةُ تحرِيك الشيء، والمَغْثُ العَرْكُ في المصارعة، ومَغْثُوا عِرْضُ فلان أي شانوه وممضغوه، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (ترتر) 4/89، ومادة (مغث) 2/190، والمعنى أنهما أساءوا إليه القول ودفعوه وكادوا يتعاركون معه لما رأوا من جرأته عليهم ومعاملته قائدتهم بما لم يعتادوه.

[6] أض محل: ضعف وانحل شيئاً فشيئاً حتى تلاشى وينقال أض محل السَّحَاب انقض.

[7] الطبرى: تاريخ الرسل والملوك 3/522، وابن الأثير: الكامل في التاريخ 2/299، وتاريخ ابن خلدون 2/530.

[8] الزرادشتية: نسبة إلى زرادشت وهو فيلسوف إيراني (عاش ما بين 1500- 1600 ق. م) مؤسس الديانة الزرادشتية، وهي ديانة متنوية؛ أي أن أصحابها يعتقدون بوجود إلهين؛ أحدهما: أهورامزدا وهو إله للخير، والآخر: أهريمان وهو إله للشر، ولها كتاب مقدس عند أتباعها اسمه الأبيستاق.

[9] انظر: شاهين مكاريوس: تاريخ إيران، ص221-224.

[10] انظر: أبو الحسن الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص44، 45.

[11] ول ديورانت: قصة الحضارة 2/441.

[12] Historian's History of the World V. 8. P. 84.

[13]]]] الطبرى: تاريخ الرسل والملوك 2/178، 181.

- [14] هؤئن سوئنج (يوان تشوانج) : رحالة صيني من مدينة تشانجان الصينية، أشهر البوذيين الصينيين زار الهند في القرن السابع الميلادي.
- [15] أرثر كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين ص430.
- [16] ماني: هو راهب بحران، ظهر في زمن الملك الفارسي سابور بن أردشير، أحدث دينًا بين المجوسية والنصرانية، فسمى ديناته بالمانوية، وهي ديانة ترى أن العالم مركب من أصلين وهما نور والظلمة، وأن كليهما غير متناهٍ إلا من الجهة التي لاقى منها الآخر. وقتلها بهرام بن هرمز. انظر: ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل 1/37.
- [17] بهرام الأول (276-273م): ملك من ملوك الدولة الساسانية الفارسية، قام بقتل ماني مؤسس الديانة المانوية.
- [18] ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل 1/37.
- [19] أبو الحسن الندوبي: مَا ذَرَ الْعَالَمَ بِانْحِطَاطِ الْمُسْلِمِينَ ص41.
- [20] مزدك: فيلسوف فارسي معروف، ظهر في أيام كسرى قباد والد أنو شروان (488-513م)، ودعا قباد إلى مذهبة فأجابه، واطلَّعَ أنو شروان على افتائه فطلبه فقتله، وكان قد أحلَّ النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركاء فيهما.
- [21] عبد القاهر البغدادي: عالم متعدد من أئمة الأصول، كان صدر الإسلام في عصره، ولد ونشأ في بغداد، ورحل إلى خراسان فاستقر في نيسابور، كان يُرَسِّ في سبعة عشر فنًا، وكان ذا ثروة، من مؤلفاته: أصول الدين، والناسخ والمنسوخ، والملل والنحل، والفرق بين الفرق، توفي سنة 429هـ-1037م. السبكي: طبقات الشافعية الكبرى 148-5/136.
- [22] عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية ص251.
- [23] قباد بن فiroز: من ملوك الساسانيين، حكم ثلاثة وأربعين سنة (488-531م)، وحارب مملكة الخرز في موقع فاصلة، وحارب الروم أيضًا، وكان قد أظهر الزندقة تأثراً بمزدك.
- [24] الطبرى: تاريخ الرسل والملوك 2/92، 93.
- [25] أرثر بيرنى في كتابه فن الحرب (Arthur birnie: The Art of War)، نقلًا عن العقاد: عبقرية خالد ص135.
- [26] أرثر كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين ص200.
- [27] الطبرى: تاريخ الرسل والملوك 3/505، وابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم 4/164.
- [28] سابور الثاني (309 - 379م): من أشهر حكام الإمبراطورية الفارسية في عهد حكم الساسانيين، يُعرف بذى الأكتاف أو سابور الكبير، حيث بلغت إمبراطوريته ما لم تبلغه غيرها.
- [29] أردشير الثاني: إمبراطور فارسي (379م - 383م)، من الحكام الساسانيين.
- [30] La bourt, le chrisianisme dans l'empire perse sous la dynastie sassanide, paris 1904, pp.45, 53, 78.
- [31] يزدجرد الأول: إمبراطور فارسي (399 - 420م)، من الملوك الساسانيين، وهو من مَكَنَ للمسيحيين أن يجهروا بعبادتهم في بلاده ومن إعادة كنائسهم، إلا أنه انقلب عليهم نصرة للمجوس على المسيحيين.
- [32] بهرام الخامس: إمبراطور فارسي (420 - 438م)، من الملوك الساسانيين، هو أحد أكثر الملوك الساسانيين المشهورين، وبطل العديد من الأساطير، التي تَسَمَّى بالعدل والشجاعة، إلا أنه مارس سياسة قاسية تجاه الأقليات الدينية في دولته وخاصة المسيحية.
- [33] أرثر كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين ص266، 267، 298، 299.
- [34] ماجد اللحام: معجم المعارك الحربية ص140.
- [35] المصدر السابق نفسه ص300.
- [36] المصدر السابق نفسه ص27.
- [37] الأبلة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة، وكانت الأبلة حينئذ مدينة فيها مسالح من قبل كسرى. ياقوت الحموي: معجم البلدان 1/77.
- [38] ذات السلاسل (موقع الأبلة): وقعت في شهر المحرم عام 18هـ، وكانت بين المسلمين والفرس، وكان المسلمين بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه وعددهم 18 ألفاً، وكان الفرس بقيادة هرمز وعددهم 120 ألفاً، تاريخ ابن خلدون 2/507.
- [39] تاريخ ابن خلدون 2/508، وانظر: الطبرى: تاريخ الرسل والملوك 3/348، وفي تاريخ الطبرى في وقعة نهاوند: خرجت الأعاجم قد شدوا أنفسهم بالسلاسل لثلا يفروا. انظر: الطبرى: تاريخ الرسل والملوك 4/116، وابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم 4/269، وذكر أن الفرس في فتح أصبهان "تسلسلوا كل عشرة في سلسلة، وكل خمسة وكل ثلاثة". تاريخ الرسل والملوك 4/143.
- [40] دخل من الروم في معركة اليرموك ثلاثون ألفاً في السلاسل، كل عشرة في سلسلة لثلا يفروا. انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق 2/150، والكلاغى: الالكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء 2/283، وابن كثير: البداية والنهاية 7/10.

قصة الإسلام

المصادر: